من أوهام المحققين

د. محمد عبد المجيد الطويل

يشعر الإنسان بالفرح الغامر حين يجد نصاً من تراثنا محققاً، أخرجه محققه إخراجاً جيداً، وبخاصة إذا علمنا أن معظم تراثنا لايزال مخطوطاً حبيس المكتبات، لاسبيل إلى الاستفادة منه إلا بعد تحقيقه، لأن معظمه مكتوب بخطوط تختلف قليلاً أو كثيراً عن الخط المستعمل في هذه الأيام.

ومعلوم أن المحقق حين يعكف على نص شعري ليحققه ويخرجه للناس، لا بد أن يتوفر عليه ضبطاً وشرحاً وتخريجاً له في كتب الأدب واللغة، وقبل ذلك وبعده لا بد أن ينسبه إلى وزنه العروضي وأن يذكر ما قد يكون نَدَّ من هفوات للشاعر.

ولقد قرأت ثلاثة من دواوين الشعر العربي، الأول ديوان بشار بن برد، وقد أُخرج بعناية الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

والثاني ديوان إبراهيم بن هرمة، آخر الشعراء المحتج بشعرهم لدى النحاة، وقد أخرجه الأستاذان محمد نفاع وحسين عطوان.

أما الثالث فهو ديوان امرئ القيس، بشرح الأستاذ حسن السندوبي.

أما ديوان بشار، فقد أخرجه محققه إخراجاً جيداً، وشرح الأبيات ونسبها إلى وزنها العروضي، واهتم كثيراً بتخريج الشعر في مظانه المختلفة، ولكن ندت منه بعض الهفوات في وزن بعض القصائد، ولو كانت واحدة أو اثنتين لما عبأنا بذلك، ولا لتمسنا له الأعذار، بأخطاء الطباعة، وما شاكل ذلك.

ولكنها للأسف كثيرة ومتنوعة، فآثرنا التنبيه عليها، لئلا يظن ظان أن العروض من سقط المتاع، وطالما اهتم الناس باللغة والأدب، فلا ضير عليهم بعد ذلك.

إن العروض أخطر وأجل من أن يُتهاون فيه، إنه الذي يمكن صاحبه من قراءة الشعر قراءة جيدة، والحكم على الأبيات بالصحة أو الخلل وان كان كثير من الناس لا يحسنونه. أعرف أساتذة كباراً جهدوا في تعلمه فعجزوا، ولكن هذا لا يغلق الباب، فما أكثر من يجيدون العروض العربي، ويعرفون فضله عليهم.

وليكن واضحاً أن تحقيق الشعر لا يؤتي ثمرته، ولا يكون جاداً نافعاً بدون العروض، ولا تغلق الباب مردداً قول الجاحظ: «العروض علم مستبرد، ومذهب مرفوض، يستكد العقول بمستفعلن ومفعول، من غير فائدة ولا محصول».

والآن أعرض نماذج للهفوات العروضية التي ندت من قلم الأستاذ، في تحقيقه لديوان بشار:

(١) أ ـ في الجزء الأول: ص ١٨٢، وردت قصيدة مطلعها:

يا مالك الناس في مسيرهم وفي المقام المطير من رهبه

وهي من البحر المنسرح، يعلم ذلك أصغر مبتدئ في دراسة العروض العربي، ولكن الشيخ نسبها إلى «المجتث»، وليته سكت عند هذا الحد، فيظن القارئ أنها خطأ مطبعي، أو سبق قلم، ولكن انظر إلى تعليقه عليها: (القصيدة من بحر المجتث، لكنه استعمله تاماً: مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن مرتين، وكذلك وزنه في الدائرة الرابعة، وهي دائرة المشتبه، لكنه لم يسمع عن العرب تاماً، وإنما سمع مجزوءاً: مستفعلن فاعلاتن مرتين،

وقد شذ استعماله تاماً عند المولدين، ومن ذلك قول بعضهم:

يا من على الحب يلحى مستهاما   لا تلحني إن قلبي لن يلاما

وقد استعمله بشار في هذه القصيدة تاماً على الشذوذ، وارتكب فيه زحافين ليخففه وهما الكف في فاعلاتن الأول (كذا) فصارت فاعلات)، والقبض في فاعلاتن الثاني (كذا) فصار فاعلتن...).

هذا ما يقوله الشيخ وهو وهم، وأظن هناك فرقاً كبيراً بين قول بشار:

يا مالك الناس في مسيرهم   وفي المقام المطير من رهبه

وبين قول المولد:

يا من على الحب يلحى مستهاما   لا تلحني إن قلبي لن يلاما

فرق واضح بين البيتين يؤكد لمن له حس دقيق، أن النغم مختلف بينهما، وأن هذا غير ذلك.

(٢) ص ٢١٦، وردت قصيدة أخرى على المنسرح ومطلعها:

يا صاح دعني فإنني نصب   حب سليمى وتركها عجب

ولكن الشيخ نسبها ـ هذه المرة ـ إلى البحر السريع، قال (القصيدة من بحر السريع، وعروضها وضربها مخبول مكشوف).

فإذا علمت أن المنسرح يكون على الصورة التالية:

مستفعلن مفعولات مستعلن   مستفعلن مفعولات مستعلن

وأن المجتث التام يكون:

مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن   مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن

وأن السريع له ثلاثة أوزان مشهورة هي:

مستفعلن مستفعلن فاعلن   مستفعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن مستفعلن فاعلن   مستفعلن مستفعلن فاعلان
مستفعلن مستفعلن فاعلن   مستفعلن مستفعلن فعْلن

علمت مدى الخلط الذي وقع فيه المحقق.

(٣) ص ٢٤٣ وردت قصيدة مطلعها:

بأبي وأمي من يقاربني   فيما أقول ومن أقاربه

وهي من البحر الكامل، ولكن الشيخ نسبها إلى السريع، يقول: (القصيدة من بحر السريع، وعروضها وضربها مخبول مكشوف.

هذه هي الطامة الكبرى، قصيدة من المنسرح ينسبها للسريع، وأخرى من الكامل ينسبها للسريع، والعجب أن كلتيهما عروضها وضربها مخبول مكشوف.

يا صاح دعني فإنني نصب   حب سليمى وتركها عجب
بأبي وأمي من يقاربني   فيما أقول ومن أقاربه

أهذان البيتان من بحر واحد؟ ألا يحس المحقق الكبير أن هناك فرقاً بينهما؟ وإذا لم يكن يحس بهذا الفرق فما له ولتحقيق الشعر؟

(٤) ص ٢٦٣ وردت قصيدة على المنسرح مطلعها:

عامت سليمى ومسها سغب   بل مالها لاتزال تحتجب

ولكنه ـ أيضاً ـ نسبها للسريع، وعروضها وضربها مخبول مكشوف.

(٥) ص ٢٧٥ وردت قصيدة، مطلعها:

كل امرئ نصب لحاجته   وعليه يحمل أوله نصبه

وهي من الكامل، لكنه نسبها للسريع أيضاً، وكالعادة عروضها وضربها مخبول مكشوف.

ب ـ في الجزء الثاني:

(١) في ص ٣٧ وردت قصيدة مطلعها:

يا صاح قل في حاجتي   أَذَكَرْتَها فما ذكرتا

وهي من مجزوء الكامل، لكن الشيخ نسبها إلى مجزوء الرجز.

ومعلوم أن بين الكامل والرجز فرقاً دقيقاً، هو تحريك الحرف الثاني في الكامل وسكونه في الرجز.

(٢) ص ٧٢ وردت قصيدة مطلعها:

قاس الهموم تنل بها نُجحا   والليل إن وراءه صُبحا

وهي من الكامل ولكنه نسبها إلى السريع.

(٣) ص ١٥٣ وردت قصيدة مطلعها:

عاد الغداة الصبّ عيد   فالقلب متبول عميد
من حوله حراسُه   وببابه أسدٌ مريد

وهي من مجزوء الكامل أيضاً، ولكنه نسبها إلى مجزوء الرجز، وجعل عروضها وضربها صحيحين، مع أن ضربها مرفل.

جـ ـ في الجزء الثالث:

(١) في ص ٨ وردت قصيدة مطلعها:

غيب جيرانه بذي حمد   عن ليل من لم ينم ولم يكد

وهي من المنسرح، ولكن الشيخ عاد إلى ماكان ونسبها إلى المجتث، واستعمله الشاعر تاماً على وجه الشذوذ.

(٢) ص ٦٧ قصيدة مطلعها:

أذكرت نفسي عشية الأحد   من زائر صادني ولم يصد

وهي من المنسرح أيضاً، ولكن الشيخ نسبها إلى السريع.

(٣) ص ٢١٨ وردت قصيدة مطلعها:

مهلاً هجائي يا بن شخص النجار

وهي من مشطور السريع، ولكنه نسبها إلى الرجز، وعروضها وضربها مقطوعان مع أن المشطور عروضه هي ضربه.

(٤) في ص ٢٣٩ قصيدة مطلعها:

حسبي بما قد لقيت يا عمر   لم يأتني عن حبيبتي خبر

وهي من المنسرح، ولكنه نسبها إلى السريع.

(٥) في ص ٢٦٤ وردت قصيدة مطلعها:

الله أكبر والصغير صغير   وتناول العلج الكرام كبير
ولقد ضربت عليه بيت مذلة   حتى أصاخ كأنه ممطور

وهي من الكامل، صحيحة العروض مقطوعة الضرب، ولكنه جعل القصيدة كلها مقطوعة العروض والضرب.

هذه نماذج للهفوات التي وقع فيها محقق ديوان بشار، وهي ـ كما قلت ـ أخطاء ليس من السهل السكوت عليها، لأن العَروض أداة رئيسية من أدوات محقق الشعر.

فإذا ما ذهبنا إلى الديوان الثاني، ديوان إبراهيم بن هرمة، وجدنا الأستاذين الفاضلين خرّجا شعره من مصادر اللغة والأدب، وشرحا مفرداته، ونسبا الأبيات إلى وزنها العروضي، لكن ندت منهما بعض الهفوات القليلة في نسبة بعض الأبيات إلى وزنها الصحيح:

(١) في ص ٧٨ وردت مقطوعة أولها:

غدا بل راح واطَّرح الخلاجا   ولَمّا يَقْضِ من أسماء حاجا

وهي مَن الوافر، لكن المحققين نسباها إلى الطويل.

(٢) في ص ١٧٠ وردت ستة أبيات مطلعها:

كأنك لم تسر بجنوب خلص   ولم تربع على الطلل المحيل

وهي أيضاً من الوافر، ولكنهما نسباها إلى الكامل.

(٣) في ص ٢٢٥ بيت من السريع وهو:

إن الذي شق فمي ضامن   لي الرزق حتى يتوفاني

ولكنهما نسباه إلى الرجز.

وإذا كانت هذه الهفوات من الممكن أن يجد لها أحد مخرجاً، بسبق لسان أو خطأ مطبعي، رغم استحالة ذلك لتكرر الخطأ في الفهارس العامة، فإن التي سأذكرها الآن بلقاء:

(٤) في ص ١٣٩ ، ١٤٠ مقطوعة من أربعة أبيات، قدم لها المحققان بقولهما:

(مدح ابن هرمة رجلاً من قريش، فلم يعطه شيئاً)، فقال يهجوه:

فهلا إذا عجزت عن المعالي   وعما يفعل الرجل القريع
أخذت برأي عمر حين ذكى   وشب لناره الشرف الرفيع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع
ومغوث بعد الهدوِّ أجبته   ولسانه وعت اللهاة قطيع

واضح أن البيت الأخير يخالف ما سبقه فهو من الكامل في حين أن الثلاثة السابقة من الوافر، ولكن المحققين جعلا الأبيات الأربعة مقطوعة واحدة، هي المقطوعة ٦٧ في الديوان، وأعطيا الأبيات أرقامها من ١ ـ ٤ وخرجا الأبيات على هذا الأساس.

جاء في ص ٢٥٩ من الديوان المذكور، أثناء تخريج هذه المقطوعة:

(البيت الأول والثاني والثالث في الأغاني ١٥ : ٢٣٩، والبيت الرابع في أساس البلاغة ٢/٥١٦).

والآن إلى ديوان امرئ القيس، لقد شرح الأستاذ/ حسن السندوبي الديوان، وبحث عن الشعراء الذين يطلق عليهم امرؤ القيس، وأطلق عليهم اسم (المراقشة) ووجد منهم المهلهل فذكر أخباره، وجمع ما تيسر له من شعره، وقد قدم لإحدى قصائد المهلهل بقوله:

(ولما شفى نفسه من أخذ ثأر أخيه، لم يكفه ذلك، بل أخذ يتهدد بني بكر) ويقول:

يا لبكر أنْشروا لي كليباً   يالبكر أين أين الفرار
يا لبكر ظعنوا ثم حلوا   صرح الشر وباح السرار
سفهت شيبان لما التقينا   إن عود التغلبي تضار
وبنو عجل تقول لقيس   ولتيم الله سيروا فساروا
يا كليب الخير لست براض   دون روح تراح منه الديار
أو أغادر قتلى تقر بعيني   ويودي ما عنده المستعار
اسألوا جهرة إيادا ولخماً   والحليقين حين سرنا وساروا
إذ دلفناهم وبكرا جميعا   فأسرنا سراتهم حيث ثاروا
وقتلنا قيس بن عيلان حتى   أمعنوا في الفرار حيث الفرار

هكذا وردت هذه الأبيات، الأربعة الأولى من المديد، والخامس مضطرب شطره الأول من المديد وشطره الثاني من الخفيف، وباقي الأبيات من الخفيف، ولم يتنبه المحقق العالم لهذا الخلط، ولم يعلق عليه رغم البون الشاسع في الموسيقى بين الأبيات.

ولو كان بيتاً واحداً لهان الأمر، أما أن تتكرر أربعة أبيات من وزن آخر ولا يلتفت إليها المحقق فأمر يدعو إلى رفع الحواجب استغراباً.

ونحن الآن أمام احتمالين، كلاهما مر:

الأول: أن الخلط من الشاعر، وأن الأبيات بالفعل من قصيدة واحدة فكان على المحقق أن يتنبه لذلك وأن يشير إليه.

الآخر: أن الخلط من المحقق، إذ وجد تشابهاً في القافية ففعل ما فعل.

وبعد.... فهذه نماذج من أوهام المحققين، وأن الإنسان ليعجب، كيف يقع أناس كهؤلاء، ـ علماً وفضلاً ـ في هذا الخطأ، وقد أفنوا عمرهم أو كادوا بين كتب الأدب واللغة، يحققون هذا ويشرحون ذلك.

وإذا كان هؤلاء وهم من هم يقعون في هذه الأخطاء، فما بالك بمن دونهم؟..

إن العروض ـ كما قلت ـ من أهم أدوات المحقق، ومن يرد إخراج ديوان من الشعر العربي، فإما أن يكون ملماً إلماماً كافياً بالعروض، وإلا فعلية أن يبحث عن عمل آخر!